الانفعالية في الحوار الديني

بقلم: الدكتور أحمد أديب أحمد

لَعلَّ من أبرزِ الْمُشـكلاتِ التي يعاني منها شـبابُنا هي مشـكلةُ الانفعالِ والتَّهَوُّرِ بالحُكْمِ في الأمورِ الدِّينيَّةِ، ومِن الطَّبيعيِّ أن تُؤَثِّـرَ هذه الظَّاهرةُ سَلْبًا في رُؤيَتِهم للواقعِ والأشياءِ والأشخاصِ، فيَفقِدُونَ وضوحَ الرُّؤيةِ، وتَختلطُ الصُّورةُ الحقيقيَّةُ في عيونِهم بصُوَرٍ زائفةٍ، وَتَرْتَبِـكُ خطواتُهم، لأنَّ الانفعالَ يُغْرِقُ شَخْصِيَّتَهُمْ في أجواءَ ضَبَابيَّةٍ غارقةٍ بالسِّحْرِ والإغراءِ، لأنَّه يَتَعامَلُ مع العاطفةِ، ولا يَتَعامَلُ مع الفكرِ، ما يَجعَلُ للتَّسـرُّعِ دورًا كبيرًا فيما يُصـدِرُهُ الشَّـابُّ من حُكْمٍ، وفيما يُخَلِّفُهُ من انطباعٍ، وفيما يَتَّجِهُ إليهِ من غاياتٍ، وبذلكَ يَفقدُ الحُكْمُ حَيثيَّاتِهِ الهادئةَ الْمُتَّزِنَةَ، ويَغيبُ التَّركيزُ.

وأبرزُ نتائجِ الانفعاليَّةِ السَّلبيَّةِ هي العصـبيَّةُ القَبَلِيَّةُ والعَشـائِرِيَّةُ، فَصَـانِعو الفِتَنِ عبرَ التَّاريخِ كانوا يَسـتَغِلُّونَ عواطفَ النَّاسِ وجَهلَهم بالأمورِ، ويُحرِّضُـونَهم عن طريقِ اسـتثارةِ العواطفِ وسَحْرِهِمْ بفِتنَةٍ ما لِيَنْجَرُّوا وراءَ صاحبِ الفتنةِ بعَمَاءٍ مُطلَقٍ.

فَلْنَتَفَكَّرْ قليلاً: لو تخلَّصَ أعداءُ أهلِ بيتِ رسـول الله (ص) من انفعالِهم لأقسـَطوا الْمَوازينَ وعرفوا أنَّهُم الأجـَلُّ دَرَجـَةً والأَقْرَبُ مَنزلـَةً لسـيِّدنا النَّبيِّ محمَّد (ص)، ولَمَا الْتَبَسَ عليهم التَّاريخُ الإسـلاميُّ الحافلُ بالخياناتِ والْمُؤامراتِ، فلا تجدُ حينَها أحدًا منهم يكفِّرُنا لأنَّهُ أعْمَلَ فكرَهُ وَوَعْيَهُ ولَمْ يَنْجَر وراءَ الفتوى الدَّاعيةِ لِقَتلِ كلِّ بريءٍ، ولكنَّ الانفعاليَّةَ والعَصـَبيَّةَ أَوْدَتْ بقِسـْمٍ كبيرٍ منهم لِلَّحَاقِ بركبِ مشايخِ التَّكفيرِ الْمُجرِمِينَ، وحَدَثَ ما حَدَثَ في سوريَّة والعالمِ العربيِّ.

ولو تخلَّصَ الْمُتَشـَدِّدونَ في التَّزَيُّنِ بحُبِّ أهلِ بيتِ رسول الله (ص) مِن انفعَالِهم، لَمَا رَأينَاهُم يَمتَهِنونَ السُّبَابَ والشَّتائمَ لصـَحَابَةِ سـيِّدنا رسـولِ اللهِ (ص)، لأنَّ الشَّـتمَ والسَّـبَّ يؤجِّجُ النِّيرانَ والعداواتِ، ولهذا نجدُ العراقَ مُشـتَعِلاً وَسَـيبقى مُشـتَعِلاً إلى الأبدِ بسـببِ الانفعاليَّةِ في التَّعاطي مع الواقعِ الحياتيِّ، وقد قال أميرُ المؤمنين الإمامُ علي (م): (إنِّي أَكْرَهُ لكم أن تكونوا سبَّابينَ، ولكنَّكُمْ لو وَصـَفْتُم أعمالَهم وذَكَرْتُم حَالَهم لَكانَ أَصـْوَبُ). لكنَّهم لا يلتزمونَ قولَ الإمامِ الذي يَتَزَيَّنُونَ بالانتماءَ لِنَهجِهِ، وهذا يؤكِّدُ انحرافَهم عن النَّهجِ الإماميِّ والتحاقَهم بمَذَاهبِ شيوخِ العمائمِ الْمُتخالِفِينَ أصلاً،

الذينَ لكلٍّ منهم مشروعُهُ الخاصُّ في نشرِ الدَّعوةِ، فإذا وقفتَ في طريقِهم انْفَعَلُوا وقَاموا بشَتمِكَ وسَبِّكَ وتكفيركَ وَوَصْفِكَ بالغلوِّ وتركِ الشَّريعةِ وإباحةِ الْمُحرَّماتِ و.....!

واليومَ يَشُوبُ مُجتمَعَنا بعضُ الانفعاليِّينَ الذينَ يصطادُهم بعضُ الظَّلاميِّينَ الْمُنافقينَ الذينَ يَسْعَونَ لنشرِ بدَعِهم وفِتَنِهم في صفوفِ الإخوةِ، فَتَرَاهُم يَشْتُمُونَ العُلَماءَ الْمُحَقِّقينَ، ويُحَاولونَ النَّيلَ مِن سُمعَتِهم ومِن سمعةِ مَن انتهجَ نهجَهُم ودافعَ عن فكرِهِم، ويَقذفونَهُم بما ليسَ فيهِم مع أنَّ سيِّدنا رسولَ اللهِ محمَّد (ص) حذَّرَ من ذلكَ في وصيَّةٍ لأبي ذر الغفاري (ع) حينَ قال: (يا أبا ذر، إيَّاكَ والغِيبة، فإنَّ الغِيبةَ أشدُّ من الزِّنى. يا أبا ذر، سِبَابُ الْمُؤمنِ فُسُوقٌ وقَتْلُهُ كُفْرٌ وأَكْلُ لَحْمِهِ من مَعَاصِي اللهِ، وَحُرْمَةُ مالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ)، فقال: وما الغِيبةُ يا رسول الله؟ قال (ص): (ذِكرُكَ أخاكَ بما يَكْرَهُ)، فقالَ: وإنْ كانَ فيه ذاكَ الذي يُذكَرُ به؟ فقال (ص): (إنْ ذكرتَهُ بمَا هُوَ فيهِ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وإنْ ذَكَرْتَهُ بمَا ليسَ فيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ). كما وردَ عن أميرِ المؤمنينَ الإمامِ علي (م) أنَّه قال لأحدِ أصحابِهِ: (اجتنبِ الغِيبةَ فإنَّها إدامُ كلابِ النَّارِ، كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أنَّهُ ابنٌ مِنْ حَلالٍ وهو يأكلُ لُحُومَ إخوانِهِ بالغِيبةِ).

وكم نتعرَّضُ اليومَ لهذا البُهتانِ من الحاقدينَ الْمُنافقينَ الْمُتطاولينَ على أدبِ الأئمَّةِ الْمَعصومين، فنجدُهم يَسُبُّوننا ويَلعنونَنا ويَفترُونَ علينا ويُهَدِّدوننا لأنَّنا نَقفُ في مواجهةِ مَن يريدُ أن يَغتَصِبَ نهجَنا الْمَعصُومَ، ونتمسَّكُ بعروةِ أميرِ المؤمنينَ الإمامِ علي (م) الوثْقَى التي قال تعالى فيها: (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ)، ونسلكُ سبيلَ العُلَماءِ الْمُحَقِّقينَ في دَحضِ الشُّبهاتِ والأباطيلِ، فبماذا إذًا يختلفُ هؤلاء الْمُفترونَ عن سُنَّةِ التَّكفيريِّينَ؟ ألا تليقُ بهم مقولةُ سيِّدنا النَّبيِّ عيسى المسيح (ع): (يا أولادَ الأفاعي، كيف تَقْدِرُونَ أن تَتَكَلَّمُوا بالصَّالِحَاتِ وأنتم أشْرَارٌ؟ فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ الْفَمُ)؟

هُمْ وأولئكَ صِنفٌ واحدٌ يَهُمُّهُ إرضاءُ شيطانِهِ، فالحذرُ كلُّ الحذرِ يا إخوتي من أهل الظُّلماتِ الفكريَّةِ الْمُفْتِنَةِ الْمُقَزِّزَةِ، فالظُّلماتُ الفكريَّةُ سادَتْ علينا في العصورِ السَّابقةِ، ونحن اليومَ في زمنٍ حَانَ للظُّلماتِ الفكريَّةِ فيهِ أن تَنْقَشِعَ، وللنُّورِ أن يَمْلأَ الأرجاءَ بالعلمِ الرَّاقي والانفتاحِ الصَّافي، لنفهَمَ أنَّ عبارةَ (أنا أو لا أحد) باطلةٌ، وأنَّ علينا أن نتعايشَ باحترامٍ، ونقبلَ بوجودِ بعضِنا على اختلافاتِنا، وأن نَتَحَادثَ ونَتناقشَ ونَتبادلَ أفكارَنا دُونَ تَعَصُّبٍ أو غَباءٍ مَقرُونٍ بالشَّتمِ لبَعضِنا والسَّبِّ واختلاقِ القصصِ والأكاذيبِ.

وكم أتحســـَّسُ اليومَ العقـابَ الإلهيَّ على هـذه الأرضِ نتيجـةَ الجهـلِ والعمى والْمُخالفاتِ الْمُتراكمةِ والْمُحَارَبةِ الشَّرِسَةِ لأهلِ الحقِّ، والتي بدأت بجريمةِ قابيلَ الأولى، ومرَّتْ بمحاربةِ الأنبياءِ كلِّهم، وبالعداوةِ لأميرِ المؤمنينَ الإمام علي (م) وأهلِ البيتِ الْمَعصومين (علينا سلامُهُم)، وَوَصَلَتْ إلى امتهانِ ســـُمْعَةِ أصـــحابـــــِهم الْمُقرَّبينَ وأتباعِهم الْمَيامين، فاتَّهموهُمْ بادِّعاءِ النُّبوَّةِ والغلوِّ، وطَعَنوا بأخلاقِهم وأنسـابـــِهم، وحاربوا كُلَّ عالمٍ من علمائِنا حتَّى وصـلوا اليومَ ليتَّهمونا التُّهم نفسَـها لأنَّ أسـلوبَهم القَذِرَ واحدٌ وطريقَتَهُم الدَّنيئةَ واحدةٌ في الْمَكرِ والتَّلبيسِ واسـتنهاضِ الْمَشاعرِ الانفعاليَّةِ عندَ الأغلبيَّةِ اللاَّعقلانيَّةِ، ولكنَّ النَّتيجةَ في النِّهايةِ كما قال تعالى: (وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَســـُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ).

نكتفي لعدم الإطالة والله أعلم

الباحث الديني الدكتور أحمد أديب أحمد